تطريز
الوسائل المفيدة للحياة السعيدة

تصنيف العلامة
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي
المتوفى سنة (١٣٧٦) رحمه الله تعالى



منقول من التسجيل الصوتي للشيخ الدكتور
صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الأولى




تطريز

الوسائل المفيدة للحياة السعيدة








تطريز

الوسائل المفيدة للحياة السعيدة

تصنيف العلامة
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي
المتوفى سنة (١٣٧٦) رحمه الله تعالى

منقول من التسجيل الصوتي للشيخ الدكتور
صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين




النسخة الأولى




بسم الله الرحمن الرحيم

للإعلام بالأخطاء الطِّباعية والاستدراكات والاقتراحات؛

يُرجىٰ المراسلة علىٰ البريد التالي: Abdellahdj24@gmail.com







الحمد لله ربِّنا، وأشـهد ألَّا إله إلا الله وحدَه لا شـريك له، وأشـهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعدُ:

فهذا هو (**الدَّرس التَّاســع والعشــرون**) من (**برنامج الدَّرس الواحد الثَّالث**)، والكتاب المقروء فيه هو «**الوســائل المُفِيدة للحياة السَّــعيدة**»، للعلَّامة ابن سِعْدِيٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

وقبْلَ الشُّروع فِي إقْرائه لَا بُدَّ مِن ذِكْرِ مُقدِّمتين اثنتين:







المُقَدِّمَةُ الأولَى: التّعرِيفُ بالمُصنِّف

وتنتظمُ فِي ثلاثة مقاصدَ:

- **المقصد الأوَّل: جرُّ نَسَبِه:**

هو الشَّـيخ العلَّامة عبد الرَّحمن بنُ ناصـرِ بنِ عبدِ الله السِّـعديُّ - بكسـر السِّـين المُشـدَّدة، كما هو مسـموعٌ مِن تلامذته وأهلِ بيته -. يُكْنَى بِــ (أبي عبد الله)، ويُعْرَفُ بـ (ابن سِّعدي)، وبه اشتهرَ.

- **المقصد الثَّانِي: تاريخ مولده:**

وُلِدَ ثانِي عشرَ محرَّم الحرام، سنة سبعٍ بعد الثَّلاثمائة والألف (١٣٠٧).

- **المقصد الثَّالث: تاريخ وفاته:**

تُوفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قبل طلوع فجر يومِ الخَميس الثَّالثِ والعِشـرين من جمادى الآخرة، سنةَ سِـتٍّ وسـبعين بعد الثَّلاثمائة والألف (١٣٧٦)، وله مِن العمر تسـعٌ وسِـتُّون سـنةً (٦٩) سنةً، رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمةً واسعةً.









المُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ: التَّعْرِيفُ بالمُصَنَّف

وتنتظم فِي ثلاثةِ مقاصدَ أيضًا:

- المقصد الأَوَّل: تحقيق عنوانِه:

طُبِع هذا الكتابُ في حياة مُصنِّفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحتَ نظرِه بِهذا الاسْم الَّذي أُثْبِت على طُرَّتِه؛ وهو «الوسائل المُفِيدة للحياة السَّعيدة»، فهذا هو اسمُ الكتابِ الَّذي سَمَّاه به مُصنِّفه.

- المقصد الثَّانِي: بيانُ موضوعِه:

لقد جمع المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فيما اسْتَوْدَعَهُ مِن فصولِ كتابه جملةً طيِّبةً مِن الأسبابِ الَّتي تُنَال بِها السَّعادةُ، فتَرْجِع على العبد بِطُمَأْنينَةِ قلبه، وانْشِراحِ صدْرِه، وراحَةِ نَفْسِه.

- المقصد الثَّالث: توضيحُ منهجه:

استفْتَحَ المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بمقدِّمةٍ تُنْبِئُ عن مقصوده، ثمَّ سَرَدَ ما عَدَّه من أسبابِ السَّعادةِ في فصولٍ متتابِعةٍ، ربَّما أفرَد سببًا فِي فصلٍ، وربَّما أوردَ في الفصل الواحِدِ أكثر مِن سببٍ مِن أسباب السَّعادة.

وقد صَنَّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى كتابَه هذا بعد اطِّلاعِه على كتابِ «دعِ القلق وابدَأِ الحياةَ» لِدَانْيَال كَارْنِيجِي، كما سَمِعْتُه مِن تلميذِه شَيخِنا عبدِ الله ابنِ عَقيلٍ، غيرَ أنَّه شَتَّان بينَ النَّفَسَيْنِ، فإنَّ نَفَسَ هذا الكِتَابِ مُزَانٌ بالدَّلائل الشَّرعيَّة، مُطَرَّزٌ بالمَعانِي المُسْتَنْبَطةِ مِن نُور الوحي، وفيه أبرزُ أُنمُوذَجٍ عن الفَرْقِ بينَ نَقْلِ العلماء الرَّاسخين لِمَا يُسْتَفاد منه عن

أُمَمِ الكُفْر، وبين نقلِ المُثَقَّفِين والمُفكِّرين؛ فإنَّك لا تَلْحَظُ في كتاب الشَّيخ أيَّ شائبةٍ مِن بَلَايَاهُم.

وفي هذه الإيماءة: تنبيهٌ إلى الحَذَر مِن الكتب المُتَرْجَمة الَّتي تَتَعلَّق بسياسة النَّفس، وتنظيمِ العَمَل، وإدارةِ الوقت؛ إلَّا لِمُتَمكِّنٍ مِن دِينِه، عَارفٍ بالشَّريعة.

فإنَّ بعضَ النَّاس مِن هؤلاء يَجْتَرُّ الدَّاءَ بلا بصيرةٍ، كما فعل أحدُهم حينَ صَنَّف كتابًا عن تربية الذَّات، جَرى فيه مَجْرى أُمَمِ الكُفر؛ فذكَرَ رِياضاتٍ يُمَارِسُها الإنسانُ يَتعوَّدُ بها الصَّبْرَ، فذكر مِن ذلك: أن يقصدَ الإنسانُ إلى عُلْبَة ثِقَابٍ، ثمَّ يَنْثُرَها، ثمَّ يُرتِّبَ أَعْوَادَها مرَّةً أخرى! وغاب عن هذا المِسْكين أنَّ فِي شَرْعِنا ما هو خيرٌ مِن ذلك، فمِن ذلك: أن يَحْبِسَ الإنسانُ نفسَه فيُسَبِّحَ لله عَزَّوَجَلَّ مائةَ مرَّةٍ، فهذا خيرٌ له مِن أن يَنْثُرَ أعوادًا ثمَّ يَجْمَعَها.

وقد عظُمَتِ البَلِيَّة، واشْتَدَّ الخَطْبُ بِهذه الكُتُب، ودخلت عُلُومٌ فاسدةٌ هي مِن علوم الشِّرك والوَثَنِيَّة؛ كعلم البَرمجة العَصَبِيَّة، حتَّى فُتِن به كثيرٌ مِن المُنْتَسِبين إلى الخير والدِّين.

وقدْ صَنَّفَت إحدى العارفاتِ بِهذا الفنِّ كتابًا سَمَّتْه «الشِّرك الجديد» أو «الجاهليَّة الجديدة»، بَيَّنَتْ فيه فسادَ هذا الفَنِّ، وقِيامَه على كثيرٍ مِن قواعدِ الشِّرْك؛ كأنْ يُعْتَقَدَ أنَّ المُتَدرِّب لا يَنْتَفِع بتدريب مُدرِّبه حتَّى يكونَ قلبُه مجموعًا على أنَّ مُدَرِّبَه يعرفُ ما في نفسِه، ويَقْدِرُ على توجِيه إرداتِه! ونحو هذه الاعتقاداتِ الباطلةِ.

فعلى المرءِ أن يحذرَ ذلك، ويَسْتكْفِي بما نقلَه العُلماءُ ونَثَرُوه ونَشَرُوه من هذه المعانِي؛ كهذا المُصنَّف للشَّيخ عبد الرَّحمن ابن سِعديٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الَّذي له الحمدُ كلُّه، وأشهدُ ألَّا إله إلا الله وحْدَه لا شريكَ له، وأشهد أنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم.

أمَّا بعدُ:

فإنَّ راحةَ القلب، وطُمأنينَتَه، وسُرورَه، وزوالَ هُمومِه وغُمومِه، هو المطلَبُ لكلِّ أحدٍ، وبه تحصُلُ الحياةُ الطَّيِّبة، ويَتِمُّ السُّرور والابتهاجُ.

ولذلك أسبابٌ دينيَّةٌ، وأسبابٌ طبيعيَّةٌ، وأسبابٌ عَمَليَّةٌ، ولا يُمكن اجتماعُها كلِّها إلَّا للمؤمنين، وأمَّا مَن سِواهم: فإنَّها وإنْ حصلَت لهم مِن وجهٍ وسببٍ يجاهِدُ عُقلاؤُهم عليه، فقد فاتَتْهُم مِن وجوهٍ أنفعَ وأَثْبَتَ وأحسنَ حالًا ومآلًا.

ولكنِّي سأذكُر برسالتي هذه ما يحضُرنِي مِن الأسباب لهذا المطلب الأعلى، الَّذي يسعى له كلُّ أحدٍ، فمنهم مَن أصاب كثيرًا منها فَعَاش عِيشَةً هنيئةً، وحيِيَ حياةً طيِّبةً، ومنهم مَن أَخْفَق فيها كلِّها فَعَاش عِيشَةَ الشَّقاء، وحَيِيَ حياةَ التُّعساء، ومنهم مَن هو بَيْنَ بَيْنَ، بِحَسَب ما وُفِّق له.

واللهُ المُوفِّقُ المُستعَانُ به على كلِّ خيرٍ، وعَلَى دَفْعِ كلِّ شرٍّ.



قال الشَّارحُ وفَّقه الله:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا أنَّ مَطْلَبَ الخلق جميعًا، مُؤمنِهم وكافِرِهم، بَرِّهِم وفاجِرِهم، طلبُ ما فيه راحةُ قلوبِهم وسرورُها، وزوالُ هُمومها وغُمومها، فإنَّ هذا المطلبَ تَشْتَرِك فيه الأممُ جميعًا، إذْ بِه تحصُل الحياةُ الطَّيِّبةُ، ويَتِمُّ السُّرورُ والابتهاج.

ثمَّ نبَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنَّ تحصيل هذا المطلب يكون بأسبابٍ مُتنوِّعةٍ؛ تارةً تكون (أسبابًا دينيَّةً)، وتارةً تكون (أسبابًا طبيعيَّةً)، وتارةً تكون (أسبابًا عمليَّةً)، وهذه الأسباب لا يمكن أن تجتمع جميعًا إلَّا للمؤمنين. وأمَّا سِوَاهم: فإنَّهم إنْ أصابوا منها طرفًا، فقد غابَتْ عنهم منها وُجُوهٌ وأطرافٌ أخرى؛ كما أشار إلى ذلك النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما رواه مسلمٌ في «صحيحه» عن صُهَيْبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ...**»؛ فقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ**»: فيه البيانُ التَّامُّ لِصحَّة ما ذكره المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى مِن أنَّ هذه الكمالاتِ على أكمل وجهٍ وأعلَاه إنَّما تحصل للمؤمنين، وأمَّا غيرُهم فإنَّهم يُصِيبُون منها بِقَدْرِ ما لهم من الأسباب.

وعلى قَدْرِ ما يُصِيب الإنسانُ مِن هذه الأسباب - الَّتي سَوف يَبُثُّها المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فيما يُستَقْبَل مِن كلامِه - تكونُ سعادتُه؛ فـ(مَن أصاب منها كثيرًا عاش عِيشَةً هنيئةً، وحيَّ حياةً طيِّبةً، ومَن أَخْفَق فيها كلِّها) فَلَعَمْرِي إنَّه يعيش (عِيشة الشَّقاء)، ويحيا (حياة التُّعَساء)، وأمَّا مَن كان متردِّدًا، له مِن هذا حظٌّ، وليس له في الآخَر حظٌّ؛ فإنَّه يَتَقَلَّب بِحَسَب ما يَعِنُّ له، فتارةً تظهر السَّعادة على مُحَيَّاه، وتارةً تختَفِي بَهْجَتُه مِن وراء أحزانِه بسبب فَقْدِه لِشَيءٍ مِن هذه الأسباب العظيمة.

قال المصنف رحمه الله:

فصل

وأعظمُ الأسباب لذلك وأَصْلُها وأُسُّها: هو الإيمانُ والعمل الصَّالح.

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النَّحل]، فأخبَر - تعالى - ووَعَد مَن جَمعَ بين الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ بالحياة الطَّيِّبة في هذه الدَّار، وبالجَزاءِ الحَسَن في هذه الدَّار وفي دار القَرار.

وسبب ذلك واضحٌ، فإنَّ المُؤمنين بالله الإيمانَ الصَّحِيحَ، المُثْمِرَ للعمل الصَّالح، المُصْلِحَ للقلوب والأخلاقِ والدُّنيا والآخِرة، معهم أُصولٌ وأُسُسٌ يَتَلَقَّوْن فيها جميعَ ما يَرِدُ عليهم مِن أسباب السُّرور والابْتهاج، وأسبابِ القلقِ والهَمِّ والأحزان.

يَتَلَقَّوْن المَحَابَّ والمَسَارَّ بَقَبُولٍ لها، وشُكرٍ عليها، واستعمالٍ لها فيما ينفعُ، فإذا استعمَلوها على هذا الوَجْه أَحْدَث لهم مِن الابتهاجِ بِها، والطَّمعِ في بقائِها وبَرَكتِها، ورجاءِ ثوابِ الشَّاكِرين، أُمُورًا عظيمةً تَفُوقُ بِخيْرَاتِها وبَركاتِها هذه المَسَرَّاتِ الَّتي هذه ثَمراتُها.

ويَتَلَقَّوْن المَكارهَ والمَضَارَّ والهمَّ والغمَّ بالمُقاومةِ لِمَا يُمْكِنُهم مُقَاومَتُه، وتخفيفِ ما يمكنُهم تخفيفُه، والصَّبْرِ الجميلِ لِمَا ليس لهم منه بُدٌّ، وبذلك يحصُل لهم مِن آثار المَكاره مِن المُقَاومَات النَّافعة، والتَّجارب والقُوَّة، ومِن الصَّبْر واحتساب الأجر

والثَّوابِ، أمورٌ عظيمةٌ تَضْـمَحِلُّ معها المَكارهُ، وتحُلُّ مَحلَّها المَسَـارُّ والآمال الطَّيِّبة، والطَّمع في فضل الله وثوابِه؛ كما عبَّر النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا في الحديث الصَّحيح أنَّه قال: «**عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ**».

فأخبَر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ المُؤمن يتضاعف غُنْمُه وخَيْرُه وثَمَراتُ أعمالِه في كلِّ ما يَطْرُقُه مِن السُّرور والمَكاره.

لهذا تَجِدُ اثنين تَطْرقُهما نائبةٌ مِن نوائب الخير أو الشَّرِّ، فيَتَفاوتان تَفَاوُتًا عظيمًا في تَلقِّيها، وذلك بحسب تفاوتِهما في الإيمان والعمل الصَّالح.

هذا الموصوف بِهذين الوصفين يتلقَّى الخيرَ والشَّرَّ بما ذكَرْناه مِن الشُّكر والصَّبْر وما يتبَعُهُما، فيَحْدُث له السُّرورُ والابتهاج، وزوالُ الهمِّ والغمِّ والقلقِ وضِيقِ الصَّدر وشَقاءِ الحياةِ، وتتمُّ له الحياة الطَّيِّبة في هذه الدَّار.

والآخَرُ يتلقَّى المَحَابَّ بِأَشَرٍ وبطَرٍ وطُغيانٍ، فَتَنْحَرِفُ أخلاقُه، ويَتلقَّاها كمَا تَتلَقَّاها البهائم بجَشَعٍ وهَلَعٍ، ومع ذلك فإنَّه غيرُ مُسْتَريحِ القلب، بل مُشَتَّتُهُ مِن جهاتٍ عَديدةٍ؛ مُشَتَّتٌ مِن جهة خوفِه مِن زوال مَحبوبَاتِه، ومِن كثرة المُعارَضات النَّاشئة عنها غالبًا، ومِن جهة أنَّ النُّفوس لا تَقِف عند حدٍّ، بل لا تَزالُ مُتشوِّفَةً لأمورٍ أخرى، قد تحصُلُ وقد لا تحصلُ، وإن حصلت على الفَرْض والتَّقدِير فهو أيضًا قَلِقٌ مِن الجهات المذكورة. ويتلقَّى المَكاره بقلقٍ وجَزعٍ وخوفٍ وضَجرٍ، فلا تَسْأَلْ عمَّا يَحْدُث له مِن شقاءِ الحياة، ومِن الأمراض الفِكريَّة والعَصبيَّة، ومِنَ الخوف الَّذي قد يَصِلُ به إلى أسوأ الحالات وأفْظَع المُزْعِجَات؛ لأنَّه لا يَرْجو ثوابًا، ولا صَبْرَ عنده يُسَلِّيه ويُهَوِّن عليه.

وكلُّ هذا مُشَاهَدٌ بالتَّجْربة.

ومَثَلٌ واحدٌ مِن هذا النَّوع، إذا تَدَبَّرْتَه ونَزَّلْتَه على أحوال النَّاس، رأيْتَ الفَرْقَ العظيم بين المؤمن العامِل بمُقْتَضى إيمانِه، وبين مَن لم يكن كذلك، وهو أنَّ الدِّين يحثُّ غايةَ الحثِّ على القَناعة بِرِزْقِ الله، وبما آتى العبادَ مِن فضله وكرَمِه المُتَنوِّع.

فالمؤمن إذا ابْتُلِي بمرَضٍ أو فقرٍ، أو نحْوِه مِن الأعراض الَّتي كلُّ أحدٍ عُرْضَةٌ لها؛ فإنَّه - بإيمانه، وبما عنده مِن القناعة والرِّضى بما قَسَمَ اللهُ له - يكونُ قَريرَ العَيْن، لا يتطلَّب بقلْبِه أَمْرًا لم يُقَدَّرْ له، يَنْظُر إلى مَن هو دُونَه، ولا ينظُرُ إلى مَن هو فَوقَه، وربَّما زادَتْ بَهجَتُه وسُرُورُه وراحَتُه على مَن هو مُتحصِّل على جميع المَطالب الدُّنيويَّةِ إذا لم يُؤْتَ القناعةَ.

كما تَجِدُ هذا الَّذي ليس عنده عَملٌ بمقتضى الإيمان، إذا ابْتُلِي بشيءٍ من الفقر، أو فَقْدِ بعض المَطَالب الدُّنيويَّة؛ تجده في غايةِ التَّعاسة والشَّقاء.

ومَثَلٌ آخرُ: إذا حدثَتْ أسبابُ الخوف، وأَلَمَّتْ بالإنسان المُزْعِجَاتُ؛ تَجِدُهُ صحيحَ الإيمان، ثابتَ القلب، مطمئِنَّ النَّفس، متمكِّنًا مِن تدبيره وتَسْيِيره لهذا الأمر الَّذي دَهَمه بما في وُسْعِه مِن فكرٍ وقولٍ وعملٍ، قد وَطَّنَ نفسَه لهذا المُزعِجِ المُلِمِّ، وهذه أحوالٌ تُريح الإنسانَ، وتُثَبِّت فؤادَه.

كما تجد فاقِدَ الإيمان بعكس هذه الحال؛ إذا وقعتِ المخاوفُ انزعج لها ضميرُه، وتَوَتَّرت أعصابُه، وتشتَّتَتْ أفكَارُه، وداخَلَهُ الخوفُ والرُّعْبُ، واجتمع عليه الخوف الخارجيُّ، والقلق الباطنيُّ الَّذي لا يمكن التَّعبير عن كُنْهِه، وهذا النَّوع مِن النَّاس إن لم يحصُل لهم بعضُ الأسباب الطَّبيعيَّة - الَّتي تحتاج إلى تَمْرِينٍ كثيرٍ - انْهارَت قُوَاهم،

وتوتَّرت أعصابُهم، وذلك لِفَقْدِ الإيمان الَّذي يَحْمِل على الصَّبْر، خُصوصًا في المَحَالِّ الحَرِجَة، والأَحْوالِ المُحْزِنة المُزْعِجة.

فالبَرُّ والفَاجِر، والمُؤمن والكافِر، يَشْتَرِكان في جَلْبِ الشَّجاعة الاكْتِسابِيَّة، وفِي الغَرِيزة الَّتي تُلَطِّفُ المَخاوفَ وتُهوِّنُها، ولكن يَتميَّز المُؤْمن بِقُوَّة إيمانِه، وصبْرِه، وتوكُّلِه على الله، واعتمادِه عليه، واحتسابِه لِثوابِه، أُمورًا تزداد بِها شجاعَتُه، وتُخَفِّفُ عنه وَطْأَةَ الخَوْفِ، وتُهَوِّن عليه المَصَاعِبَ؛ كما قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [النِّساء]، ويحصُل لهم من مَعُونَة اللهِ ومَعِينِه الخَاصِّ ومَدَدِه ما يُبَعْثِرُ المخاوفَ؛ وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا **السَّبب الأوَّلَ مِن أسباب السَّعادة وطُمأنينة القلب وانشراح الصَّدر**، وهو (الإيمان بالله والعمل الصَّالح).

ووجه ذلك: أنَّ العبد بين شيئين اثنين:

- ✓ **أحدهما**: نِعمةٌ واصلةٌ.
- ✓ **والآخر**: مُصيبةٌ حاصلةٌ.

ولا يتمكَّنُ مِن إظهار الواجب فيهما إلَّا المؤمنُ؛ فمَا وصله مِن النِّعم فإنَّه يُبَادِر بِشُكر الله عَزَّوَجَلَّ عليه، وما حصَل له مِن النِّقم فإنَّه يدَّرِعُ بالصَّبْر عليه؛ وإلى ذلك أشار

النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله في حديث صُهيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المُخرَّج في «صحيح مسلمٍ»: («عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»).

فذكر النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث ما تُعَامَل به النِّعمة الواصلةُ؛ وهو شُكْرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليها، وما تُدْفَع به المُصيبة الحاصلة؛ وهو الصَّبْر عليها.

فإذا تَدَرَّع العبد بالشُّكر والصَّبْر، كان ذلك علامةَ إيمانه؛ لأنَّ الصَّبْر والشُّكْر مِن أعظم أصول الإيمانِ، حتَّى جاء عن بعض السَّلف: «الصَّبْر نصف الإيمان، والشُّكر نصف الإيمان». وجاء عن بعضِهم: «الصَّبْر رأس الإيمان»؛ مِمَّا يدلُّ على أنَّ الإيمانَ دائرٌ مع هذين الشَّيئين دَوَرَانًا عظيمًا.

فإذا قام الإنسان بالشُّكْر والصَّبْر؛ كان مؤمنًا بالله عَزَّوَجَلَّ، وإذا آمَن الإنسانُ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُحْيِيه حياةً طيِّبةً في الدُّنيا والآخرة، ويَجْزيه الجَزاء الحَسَنَ في الدُّنيا والآخرة؛ كما ذكر ذلك الله عَزَّوَجَلَّ في الآية الَّتي صَدَّر بها المُصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى هذا الفصلَ.

ثمَّ نبَّه المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى إلى الفَرْقِ بين النَّاس في هذا الباب؛ فإنَّ النَّاس في هذا الباب بينهم تفاوتٌ عظيمٌ، كتفاوُتِهم في صُورِهم، بل أعظمُ؛ فكم مِن إنسانٍ تراه مطمئنَّ القلب، مُنشَرِح الصَّدر، وكم مِن إنسانٍ تراه مُشَوَّشَ القلب، ضيِّقَ الصَّدر. وهم في كلٍّ متفاوتون؛ فأولئك المطمئنَّةُ قلوبُهم، المُنْشَرِحةُ صُدُورُهم، بينهم درجاتٌ كثيرةٌ، فمُقِلٌّ ومستكثِرٌ، ومِثْلُهم مقابِلُوهم مِمَّن تَشَوَّشَت قلوبُهم، وضاقَت صُدرُوهم، فهم مُتَفاوِتُون في ذلك تفاوتًا عظيمًا؛ كلُّ ذلك بحسَب بالإيمان؛ فمَن زاد إيمانُه زادت سعادتُه، ومن

قلَّ إيمانُه قَلَّت سعادَتُه؛ كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بقولِه - فيما نَقلَه عنه تلميذُه ابن القيِّم في «مدارج السَّالكين» -: (مَن أراد السَّعادة الأبَدِيَّة؛ فَلْيَلْزَمْ عَتَبة العُبوديَّة).

ثمَّ ضرب المؤلِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى مَثَلَين يَتبَيَّن بِهما المَقالُ في التَّفريق بين الطَّائفتين:

* **أوَّلهما**: أنَّ (المؤمنَ إذا ابْتُلِي بمرَضٍ أو فقرٍ، أو نحْوِه مِن الأعراض الَّتي كلُّ أحدٍ عُرْضَةٌ لها؛ فإنَّه - بإيمانه، وبما عنده مِن القناعة والرِّضَى بما قَسَمَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ له - يَكُون قَريرَ العَيْن، لا يتطلَّب بقلْبِه أَمْرًا لم يُقَدَّرْ له، يَنْظُر إلى مَن هو دُونَه، ولا ينظُرُ إلى مَن هو فَوقَه)، وربَّما رأى أنَّ فَقْرَه سببُ سعادته؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد يحجِب الغنى عن بعض العِبَاد لتكميل عُبُوديَّتِهم، وإنَّ مِن هؤلاء مَن يكون في أكمل السَّعادة.

وقد جاءَ في ترجمة إبراهيمَ بنِ أدهمَ - الزَّاهد المشهور، وكان ابنًا لأحد الأمراء، وتخلَّى من إِمَارة والده، وتحوَّل مِن بلاده إلى مصرَ -: أنَّه كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى على شاطِئِ نَهر دجلةَ وَبِيَدِه كِسَرٌ من الخُبز اليابِس وهو يغمِسُها فِي الماء ويأكلُها، ثمَّ يقول لصاحبِه أبي يُوسفَ الغَسُوليِّ: «لَو علمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه مِن النَّعيم لَجَالَدُونا عليه بالسُّيوفِ أيَّام الحياةِ على ما نحن فِيه مِن لذيذ العيشِ»، والقائل لهذا هو ابنُ ملكٍ! وقد آنَسَ سعادةَ القُصور، والقُروش، والفُرُش، والعِزَّة، ولكنَّه لم يَجِدْ فيها طُمأنينةَ قلبِه، وانشراحَ صدرِه، بل وجدَ التَّخلِّي عنها والإقبالَ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو السَّبب في السَّعادة.

وقدِ اتَّفق هذا الأمرُ لكثيرٍ مِن أمراء الزَّمان القديم والحديث؛ يَتخَلَّون عن إماراتِهم، ويُقْبِلون على القرآن، ويشتَغِلون بما ينفعهم؛ لأنَّهم لم يُحِسُّوا السَّعادة فيما كانوا عليه.

أمَّا مَن لم يكن قَوِيَّ الإيمانِ، ثابتَ اليَقين: فإنَّه إذا حَدَثَت به ضـائقةٌ مِن ضـوائق الدُّنيا أصـابَه مِن ضـيق الصَّـدر وحَرَجِه، وتَشَـوُّشِ القلب، وتَبَلْبُلِ الخَواطِرِ ما الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به عليمٌ، وربَّما حمَل هذا الأمرُ أحدَهم على أن يقتُلَ نفسَه! فكم مِن امرئٍ نَسمع بأنَّه قتل نفسَه لأجل ضائقةٍ ماليَّةٍ أصابَتْه، أو إفلاسٍ نزلَ به؛ لأنَّ قلبَه ضعيفٌ عن صدِّ هذه الواردات لفراغه مِن الصَّبْر.

* **وذكر المُصـنِّف رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى مثلًا آخرَ:** (إذا حدثَت أسـبابُ الخوف، وألَمَّتْ بالإنسـان المُزْعِجَات؛ تَجِدُهُ صـحيحَ الإيمان، ثابتَ القلب، مطمئِنَّ النَّفس، متمكِّنًا مِن تدبيره)، ومعرفةِ ما يُصْـلِح به حالَه، ولـمْ يتمكَّن هذا الوارد المَخَوِّفُ مِن بَلْبَلَةِ يَقِينِه، ولا زعزعةِ إيمانِه، ولا التَّشويشِ على عقلِه؛ بل تجده يَتَصرَّف في المُدْلَهِمَّات بحكمةٍ بالغةٍ.

أمَّا (فاقدُ الإيمان بعكس هذه الحال؛ إذا وقعتِ المخاوفُ انزَعج لها ضـمِيرُه، وتَوَتَّرت أعصـابُه، وتشـتَّتَتْ أفكارُه، وداخَلَه الخَوفُ والرُّعْبُ)، ولم يُوفَّق إلى معرفة ما تَصْلُح به حالُه، فتنهار قُواه، وتَتَوتَّر أعصابهُ.

وقد ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى في «مدارج السَّـالكين» في (منزلة السَّـكينة) ما كان يلحُقُهم أحيانًا مِن تَزَعْزُع نُفُوسِـهم، والخَوْفِ عليها بسـبب كثرةِ مَن يَطِيف بِهم من خُصُـومهم، فما أن يأتوا إلى مجلس أبي العبَّاس ابن تيميَّةَ رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى، فيقرأ عليهم آيات السَّكينة، حتَّى يَجِدُوا بَرْدَ اليَقِين، وَثَلْجَ الطُّمأنينة فِي نفوسِهم.

والمقصـودُ: أنَّه كلَّما زاد إيمانُ الإنسـانِ وصـبْرُه، وتوكُّلُه على الله، وأظهَرَ شُـكْرَه لله عَزَّوَجَلَّ على نعمِه؛ زادَ أَمْرُ سَـعـادَتِه، وإن كان مُعْدَمًا فقيرًا. وكلَّما قَلَّ حظُّ الإنسـان من الصَّبر والشُّكر؛ زادَ عذابُه، وإن كان غنيًّا مُتْرفًا. فإنَّ الغنى والتَّرف في هذه الصُّور الظَّاهرة

إنَّما هو نعيم الظَّاهر، وقد فَقد أكثرُ هؤلاء نعيمَ الباطن.

وأشَــدُّ الألمِ والعذاب هو عذاب الباطن؛ كما ذكر ذلك شــيخ الإســلام ابن تيميَّةَ، وتلميذُه ابن القَيِّم، وحفيده بالتَّلْمَذَةِ ابنُ رجبٍ.

فتجدُ الرَّجلَ القويَّ في بدَنِه، المَتِينَ في صــورته، المُتَردِّد في التَّرف؛ تجدُه مُحطَّمَ القِوى، مُزَعْزَع القُدَرِ، مُشَــوَّش الخَوَاطِرِ؛ وذلك لأنَّ سِــياط العذابِ نازلةٌ على قلبه. وترى الرَّجل النَّحيلَ، الفَقِيرَ ذا الحاجة؛ وتجده قويَّ الإيمان، ثابِتَ الجَأْشِ، يَجِدُ بَرْدَ اليَقِين وطُمأنِينَته في قلبِه.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

ومِن الأسـباب الَّتي تُزِيل الهمَّ والغمَّ والقلقَ: الإحسـانُ إلى الخلق بالقول والفعل، وأنواعِ المعروف، وكلُّها خيرٌ وإحسانٌ.

وبِها يَدْفَع اللهُ عن البَرِّ والفاجِرِ الهُمومَ والغُمومَ بحَسَـبِها، ولكنْ للمؤمن منها أكمَلُ الحظِّ والنَّصيب، ويتميَّز بأنَّ إحسـانَه صـادرٌ عن إخلاصٍ واحتسـابٍ لثوابِه، فيُهَوِّن اللهُ عليه بَذْلَ المعروف لِمَا يَرْجُوه من الخير، ويَدْفَع عنه المكارهَ بإخلاصِـه واحتسـابِه؛ قال تـعـالـى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النِّساء].

فأخبَر - تعالى - أنَّ هذه الأمورَ كلَّها خيرٌ مِمَّن صَـدَرَت منه، والخيرُ يجلب الخيرَ، ويدفع الشَّـرَّ، وأنَّ المؤمِنَ المحتَسِـبَ يُؤتيه اللهُ أجرًا عظيمًا، ومن جملة الأجر العظيم: زوالُ الهَمِّ والغَمِّ والأكْدَار ونحْوِها.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

ذَكَر المصـنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في هذه الجملة سَـببًا آخَر **يَنْشَـرِح به الصَّـدر، ويطمئنُّ القلبُ، ويُزَال الهمُّ والغمُّ والقلق**، وهو (الإحسـانُ إلى الخلق بالقول والفعل، وأنواعِ المعروف، فكلُّها خَيرٌ وإحسانٌ).

(وبِها يَـدْفَع اللهُ عَزَّوَجَلَّ عن البَرِّ والفـاجِرِ الهُمومَ والغُمومَ) بحسـب مـا قَـدَّم من الإحسـان إلى الخَلْق، فيكونُ إحسـانه إلى الخلق مقلِّلًا من هُمومه وغُمومه، حتَّى إذا

استكمَلَ الإيمانَ، اندفعت تلك الغُموم كلُّها.

وقد أشار إلى هذا السَّبب ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في فصلٍ ماتعٍ له في «زاد المَعاد»، ذكر فيه أسبابَ انْشِراح الصَّدر.

وذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى الحُجَّة في ذلك، وهو قول الله تعالى: (﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴿١١٤﴾﴾ [النِّساء]).

فإنَّ هذه الأمور كلَّها ممَّا يُؤدَّى به الإحسانُ إلى الخلق، وما استُعْبِد النَّاس بمثل الإحسان، وما انْشَرحت الصُّدور بعد معاملةِ عَلَّام الغُيوب بالتَّوحيد، بمثلِ معاملة الخلق بالإحسان إليهم، وكفِّ الأذى عنهم، والصَّفح عن خطاياهم، والعفوِ عن زَلَّاتهم.

وإنَّ أعظم النَّاس إحسانًا إلى النَّاس هو نبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَدَى وأَرْشَدَ ودَلَّ، وتركَ النَّاس على البَيْضَاء، ليلُها كنَهارِها، لا يزيغُ عنها إلَّا هالكٌ، ووُرَّاثُه مِن بعده مِن العلماء هم أكثرُ النَّاس إحسَانًا إلى الخلق جميعًا إنسِهم وجِنِّهم، بل وبَهائِمهم؛ فإنَّ النَّملةَ في جُحْرِها، والحُوتَ في بحرِها تستغفر للعالِم، وإنَّما تستغفر للعالمِ لأنَّ ما يَصِل إليها من الإحسان هو بتعليم العالمِ النَّاسَ ما يجِبُ لهذه البهائمِ العَجْمَاء مِن الحقوق، وهذا يَدُلُّك على أنَّ العلم مِن أعظمِ أبواب الخير، فمُتعلِّمُ العلمِ ساعٍ في طلب الإحسان، وناشِرُ العلم ساعٍ لِبَذْل الإحسانِ.

وكما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (أفضل الهديَّة كلمةُ الخيرِ، يُهديها العبدُ إلى أخيه المسلمِ).

قال المصنف رحمه الله:



ومِن أسباب دفع القلق النَّاشئ عن توتُّرِ الأعصاب، واشتغالِ القلب بِبَعض المُكدِّرات: الاشتغالُ بعملٍ من الأعمال، أو علمٍ من العلوم النَّافعة.

فإنَّها تُلْهِي القلبَ عن اشتغالِه بذلك الأمرِ الَّذي أقلقه، وربَّما نَسِيَ بسبب ذلك الأسبابَ الَّتي أَوْجَبَتْ له الهمَّ والغمَّ، ففرِحَتْ نفسُه، وازداد نشاطُه.

وهذا السَّبب أيضًا مُشتَرَكٌ بين المؤمِنِ وغيرِه، ولكنَّ المؤمنَ يَمْتاز بإيمانِه وإخلاصِه واحتسابِه في اشتغالِه بذلك العلمِ الَّذي يتعلَّمه أو يُعَلِّمه، وبعمل الخير الَّذي يعمَلُه، إن كان عبادةً فهو عبادةٌ، وإن كان شُغْلًا دُنيويًّا أو عادةً دُنيويَّةً أصحبَها النِّيَّةَ الصَّالحةَ، وقصدَ الاستعانةَ بذلك على طاعة الله، فلذلك أثَرُه الفَعَّالُ في دفع الهمِّ والغموم والأحزان.

فكم مِن إنسانٍ ابْتُلِي بالقلق، وملازمةِ الأَكْدار، فَحَلَّت به الأمراضُ المُتنوِّعة، فصار دواؤُه النَّاجعُ: نسيانَه السَّبَبَ الَّذي كَدَّره وأقْلَقه، واشتغالَه بعملٍ من مُهمَّاته.

وينبغي أن يكون الشُّغْل الَّذي يشتَغِل فيه ممَّا تأنَسُ به النَّفس وتَشْتَاقُه، فإنَّ هذا أَدْعَى لحصول هذا المقصود النَّافع.

والله أعلم.



قال الشَّارحُ وفّقه الله:

ذكر المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ **تعالى هنا سببًا ثالثًا يَدْفَع عنِ النَّفس القَلَق والغَمَّ والهمَّ والمكدِّرات الَّتي تَعْتَرِيها**، وهو (الاشتغال بعملٍ من الأعمال، أو علمٍ من العلوم النَّافعة)، وهو فِي كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله تعالى في آخر سورة الشَّرح: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [الشَّرح].

فأمرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عبادَه عند الفراغ بأن يُقْبِلوا عليه بالعبادةِ؛ لِعِلْمِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنَّهم إذا تَركُوا نُفوسَهم فارغةً، فإنَّها لا بُدَّ أن تُشْغِلَهم، كما قال بعضُ السَّلف: «نفسَك إذا لم تُشْغِلْها بالطَّاعة، أشْغَلَتْك بالمعصية».

فمِن أعظم ما يَدْفَع عن الإنسان مُكدِّرات قلبِه وقلقِه وغَمِّه: أن يشتَغِل بما ينفَعُه، فإنَّ هذا الأمرَ الَّذي يشتَغِل به - مِن علمٍ نافعٍ وعملٍ صالحٍ - يَنْسى به أسباب الهمِّ والغمِّ، وتفرَحُ به نفسُه، ويزداد نشاطُه.

والطَّائفتان مشترِكَتان في هذا: الكافر والمؤمن، إلَّا أنَّ المؤمن يَتميَّز بإيمانه وإخلاصِه واحتسابِه؛ سواءً كان في أعمال الدُّنيا أو في أعمال الآخرة، فَبِقُوَّة إخلاصِه واحتسابِه تحصل له قوَّةٌ فِي تعاطي هذا السَّبب.

وكلَّما كان الأمر الَّذي يشتَغِل به الإنسانُ عظيمًا؛ كانَ أثرُه في نفسِه عظيمًا، وكلَّما كان هذا الأمر العظيم الَّذي اشتغَل به خالِصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مُوافقًا لسنَّة النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ظهَرَتْ منفعتُه، كما قال ابن المُبَارك: «كم مِن عملٍ كبيرٍ صغَّرَتْه النِّيَّة، وكم مِن عملٍ صغيرٍ عظَّمَتْه النِّيَّة».

فإذا حسُنَت نيَّة الإنسان، واتَّبع الشَّريعة الغَرَّاءَ بما يأتيه من الأسباب العمليَّة، أو

الأسباب العِلميَّة، من العلوم النَّافعة والأعمال الصَّالحة؛ كان انتفاعُه حينئذٍ بِها كبيرًا.

وفِي آيِ القرآن الكريم ما لا يُحْصَى كَثْرةً مِن الآيات الَّتي فيها بيانُ منفعَةِ العلم النَّافع والعمل الصَّالح، وما ترجِع على صاحبه من سعادة الدُّنيا والآخرة.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وممَّا يُدْفع به الهَمُّ والقلقُ: اجتماعُ الفِكْرِ كلِّه على الاهتمام بعمل اليوم الحاضِر، وقطعُه عن الاهتمام في الوقت المستقبَل، وعن الحُزْنِ على الوقت الماضي.

ولهذا استعاذ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن الهَمِّ والحَزن، فلا ينفع الحُزْن على الأمور الماضية الَّتي لا يمكن رَدُّها ولا استِدْرَاكُها، وقد يضُرُّ الهَمُّ الَّذي يَحْدُث بسبب الخوف من المستقبَل، فعلى العبد أن يَكُون ابْنَ يَوْمِه، يجمعُ جِدَّه واجتهاده في إصلاح يومِه ووقتِه الحاضر؛ فإنَّ جَمْعَ القلب على ذلك يُوجِب تكميلَ الأعمال، ويتسلَّى به العبدُ عن الهمِّ والحَزَن.

والنَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا دعا بدعاءٍ أو أرشد أُمَّته إلى دعاءٍ، فإنَّما يحثُّ - مع الاستعانة بالله والطَّمع في فضله - على الجِدِّ والاجتهاد في التَّحقُّق لحصول ما يدعو بحصوله، والتَّخَلِّي عمَّا كان يدعو لِدَفْعِه؛ لأنَّ الدُّعاء مقارِنٌ للعمل، فالعبدُ يجتَهِد فيمَا ينفَعُه في الدِّين والدُّنيا، ويسأَلُ ربَّه نجاحَ مقصَدِه، ويستعِينُه على ذلك؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**». رواه مسلمٌ.

فجمَع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الأمر بالحِرْص على الأمور النَّافعة في كلِّ حالٍ، والاستعانة بالله، وعدم الانقياد للعجز - الَّذي هو الكسل الضَّارُّ -، وبين الاستسلام للأمور الماضية النَّافذة، ومشاهدةِ قضاء الله وقَدَره.

وجعلَ الأمورَ قِسمين:

- **قِسـمًا** يمكن العبدَ السَّعيُ في تحصيلِه، أو تحصيل ما يمكن منه، أو دفعِه أو تخفيفِه؛ فهذا يُبْدِي فيه العبدُ مجهُودَه ويَسْتَعِين بِمَعْبُوده.
- **وقِسمًا** لا يمكن فيه ذلك، فهذا يَطمئنُّ له العبد، ويرضَى ويُسَلِّم.

ولا ريبَ أنَّ مُراعاةَ هذا الأصلِ سببٌ للسُّرور وزوالِ الهمِّ والغمِّ.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

ذَكَر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا **السَّبب الرَّابع الَّذي يندَفِعُ به عن القلب همُّه وقلقُه؛** وهو جَمْعيَّة الفِكْرِ كلِّه على الاشتغال بوظيفة الوقت مِمَّا هي في العمل الحاضر، ويقطَعُ فِكْرَه عن استِرْساله في لُحوق الهمِّ به في الوقت المستقبَل، أو الحُزْن على الوقت الماضي.

وهذا الأمر فرعٌ مِن قاعدةٍ عظيمةٍ في إصلاح القلوب؛ هي (حِراسة الخَواطِر)؛ فإنَّ خواطِرَ الإنسانِ هي الَّتي تُحَرِّكه، وإذا لم يَعْتَنِ الإنسانُ بحراسة خَواطِره - كما ذكر ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى - لَحِقَه بذلك نقصٌ عظيمٌ في دُنْيَاه، وعذابٌ شديدٌ في أُخْراه.

ومِن جملة ما يندرج تحت باب حِراسة الخَواطر: أن يكون الإنسان مشتغِلًا بما هو فيه في هذا الوقت، مِن غير التفاتٍ إلى ما يُستقْبَل في الوقت القادم، ولا حُزنٍ عمَّا أَسِف عليه في الوقت الماضي؛ كما قال بعضُهم: (لا تحزنْ لما فات، ولا تُفَكِّر بما هو آت)؛ **لأنَّ الإنسانَ مُتَرَدِّدٌ بين أمورٍ ثلاثةٍ:**

- **أحدها**: أن يشتغِل بأمرِه الحاضر.

- **وثانيها**: أن يشتغِل بالفِكْرِ في أمرِه القادم.
- **وثالثها**: أن يشتغل فِكْرُه بأمرِه الَّذي مضى.
  - فإنِ اشتغل بأمره الحاضرِ: جمعَ قلبَه على ما يدفع الهَمَّ والغَمَّ عنه.
  - وإذا اشتغل بأمره المستقبَل: لَحِقه الهَمُّ.
  - وإذا اشتغل بأمره الماضي: لَحِقه الحُزْن.

فإذا جمع قلبَه على وظيفةِ الوقت: كَمُل العملُ الَّذي يقوم به فيه، وتَسَلَّى عن الأحزان والغُموم الَّتي تَلْحَقُه بسبب تَذْكَار الماضي، أو الاهتمامِ بالمستقبَل.

وقد ذكر المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى حديثَ أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الدَّالَّ على هذا الأصلِ، وهو قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: («**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»)، فإنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرْشَدَ في هذا الحديث **إلى ثلاثة أصولٍ تحصُلُ بها السَّعادة للعبد**، كما ذكر ذلك ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

أوَّلها: حرصُ الإنسانِ على ما ينفعُه.

وثانيها: استعانَتُه بالله عَزَّ وَجَلَّ في القِيام به.

وثالثها: تركُ العَجْز عنه، وعدم الاستسلام للكَسَل والرَّاحة والدَّعَة.

فإذا جمع الإنسان هذه الأصولَ الثَّلاثة فيما يطلُبُه، تَيَسَّر له أمرُ هذه السَّعادة.

ثمَّ أرشد النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جعلِ الأُمور على قِسْمين:

※ **أحدهما**: قِسْمٌ يمكن للعبد (**أن يسعى في تحصيلِه، أو تحصيل ما يمكن منه، أو دفعِه أو تخفيفِه**)؛ وهذا ما كان داخِلًا في قُدْرة العبدِ ووُسْعِه، وما كان مِن هذا الجِنْس

فإنَّه مأمورٌ بأن يَحْرِص على ما ينفعُه منه، وأن يســتعِين بالله عليه، ولا يعجِزْ عن شــيءٍ منه.

* **والآخر: قِسْــمٌ لا يمكِنُه فيه أن يفعلَ شيئًا، ولا أن يَرُدَّ منه قَدْرَ أُنْمُلةٍ**؛ وهو قَدَرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النَّافذُ، فأُرْشِــد إلى ما فيه صــلاحُه واســتقامةُ حالِه فيه؛ وهو أن يُســلِّم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدَرَه، وأن يتْرك الاعتِراضَ على القَدَر بـ (لَوْ).

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ ﴿١١﴾﴾ [التَّغابن]؛ قال عَلْقَمَةُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «هو الرَّجل تُصِــيبُه المُصــيبةُ، فيعْلَم أنَّها مِن عند الله، فيرضــى ويُسَــلِّم»، وذُكِر هذا المعنى عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أيضًا.



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:



ومِن أكبَر الأسباب لِانْشِراح الصَّدر وطُمأنينته: الإكثار مِن ذكر الله.

فإنَّ لذلك تأثيرًا عجيبًا في انْشِراح الصَّدر وطُمأنينته، وزوالِ همِّه وغمِّه؛ قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرَّعد]، فَلِذِكْرِ اللهِ أثرٌ عظيمٌ في حصول هذا المطلوب؛ لخاصِّيَّته، ولِمَا يَرْجُوه العبدُ مِن ثوابِه وأجْرِه.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى سببًا خامسًا مِن **أسباب انْشِراح الصَّدر وطُمأنينة القلب**؛ وهو (الإكثار مِن ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ)؛ كما (قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرَّعد])؛ فإنَّ القلوبَ إذا تَغَرْغَرَتْ بِحَلاوة ذِكْرِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اطمَأَنَّت، وسَكَنَتْ، وثَبَتَتْ، ولم يلحَقْها نَقْصٌ، وإذا فاتَها حظُّها مِن ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَحِقَها تَشَوُّشٌ وتَبَلْبُلٌ بِقَدْرِ هذا الفَائِت.

وقد كان عبد الله بنُ عَوْنٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى يقولُ: «ذِكْرُ النَّاس داءٌ، وذِكْرُ الله دواءٌ»، **ومعنى هذا:** أنَّ الإنسانَ الَّذي يشتَغِلُ بِذِكْر النَّاس، يُشْغِلُ قَلْبَه ونَفْسَه بِمَا يَرْجِع عليه بالضَّرر في القِيل والقَال، وتَقْلِيب الأَحْوال والأَفْعَال، وأمَّا ذِكْرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فإنَّه دواءٌ

على كلِّ حالٍ.

ولذلك أمر الشَّرعُ الحكيمُ بالإكثارِ مِن ذكر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وفي «صحيح مسلمٍ» مِن حديث أبي هُريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**»، قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ**».

فَمِن أعظَمِ أسباب صلاح القلب: أن يكونَ الإنسانُ مُلِظًّا بِذِكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، مُحافِظًا عليه، فإنَّه إذا كان على هذا الحالِ كُتِب له أجرٌ عظيمٌ.

وقدِ اختلف أهلُ العلم رَحِمَهُمُٱللَّهُ تعالى في الحَدِّ الَّذي يكون به الإنسان ذاكرًا لله عَزَّوَجَلَّ كثيرًا على أقوالٍ، **أصحُّها**: ما ذكره أبو عمرٍ بنُ الصَّلاح في «فتاويه»، وتَبِعه شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ وتلميذُه ابن القيِّم: أنَّ مَن حافظ على الأذكار المُوظَّفة في اليوم واللَّيلة وتَقَلُّب الأحوال، يكون ذاكرًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كثيرًا.

فمَن حافظ على أذكار الصَّباح والمساء، واليوم واللَّيلة، والأذكار الَّتي تتعلَّق بالأحوال؛ كدخول المسجد، أو الخروج منه، ودخول الخَلاء، والخروج منه = فإنَّه يكون مِن جملة الذَّاكِرين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كثيرًا والذَّاكرات.



قال المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكذلك: التَّحدُّث بِنِعَم الله الظَّاهرة والباطنة.

فإنَّ معرفتَها والتَّحدُّثَ بِها يدفعُ اللهُ به الهمَّ والغمَّ، ويحثُّ العبدَ على الشُّكر؛ الَّذي هو أَرفَعُ المراتِب وأعلاها، حتَّى ولو كان العبد في حالة فقرٍ أو مرضٍ أو غيرهما مِن أنواع البلايا، فإنَّه إذا قابَل بينَ نِعَم الله عليه – الَّتي لا يُحْصَى لها عدٌّ ولا حسابٌ –، وبين ما أصابه مِن مكروهٍ؛ لم يَكُنْ للمكروه إلى النِّعَم نسبةٌ.

بل المكروهُ والمصائب إذا ابتلى اللهُ بِها العبدَ، وأدَّى فيها وظيفةَ الصَّبْر والرِّضا والتَّسليم: هانَتْ وَطْأتُها، وخَفَّت مُؤْنَتُها، وكان تأمِيلُ العبدِ لأجرها وثوابِها والتَّعبُّدُ لله بالقيام بوظيفة الصَّبر والرِّضا، يَدَعُ الأشياءَ المُرَّةَ حُلوةً، فتُنْسِيه حلاوةُ أجرِها مَرارةَ صبْرِها.

ومِن أنفع الأشياء في هذا الموضِع: استعمالُ ما أرشدَ إليه النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصَّحيح حيث قال: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ؛ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ**»؛ فإنَّ العبدَ إذا نَصَب بين عَيْنَيه هذا المَلْحظ الجليلَ، رآه يَفُوق جَمْعًا كثيرًا مِن الخَلْق في العافية وتوابِعِها، وفي الرِّزْق وتوابِعِه، مهما بلغَت به الحالُ، فيزُول قَلَقُه وهمُّه وغَمُّه، ويزدَاد سروره واغْتِبَاطُه بِنِعَمِ الله الَّتي فاق فيها غيرَه مِمَّن هو دُونه فيها.

وكلَّما طالَ تأمُّلُ العبدِ بِنِعَم الله الظَّاهرة والباطنة، الدِّينيَّة والدُّنيويَّة؛ رأى ربَّه قد أعطاه خيرًا كثيرًا، ودفع عنه شُرورًا مُتعدِّدةً، ولا شكَّ أنَّ هذا يدفع الهموم والغموم، ويُوجِب الفَرَح والسُّرور.

قال الشارح وفقه الله:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا سببًا سادسًا مِن أسباب **انشراح الصَّدر، وطُمأنينةِ القلب، وسعادةِ العبد**؛ وهو (التَّحدُّث بِنِعَم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ)؛ لِمَا في ذلك مِن الإقرار لله عَزَّوَجَلَّ بالرُّبوبيَّة، والإذْعانِ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالألوهيَّة، وكُلَّما زادت عُبوديَّة العبدِ لربِّه بالإقرار والإذعان والاستسلام، رجعَ ذلك على نفسه بالقوَّة، وعلى قلبِه بالانشراح، وعلى قلبه بالطُّمأنينة.

وبِهذا أمرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بآخِرِ سورةِ الضُّحى؛ فإنَّه لمَّا عدَّد نِعَمًا واصلةً إلى النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمره بأن يتحدَّث بنعمته؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضُّحى]، وهذا الأمر للنَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أمرٌ لنا؛ كما قال ابن عاصمٍ في «المُرتَقى»:

وَثَابِتٌ مَا فَعَلَ الرَّسُولُ   لَنَا؛ سِوَى مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ

فأيُّما أمرٍ أُمِرَ به النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالأصلُ: اشتِراكُنا معه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما لَمْ يأتِ دليلٌ يُفَرِّق بيننا وبينه.

كما أنَّ الذُّرِّيَّة الباقية مِن نَسْلِ نوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نُبِّهوا إلى هذا الأصل العظيم؛ في قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء]؛ يعني: يا ذرِّيَّة مَن حَمَلْنا مع نوحٍ - وهم الذُّرِّيَّة الَّتي بَقِيت في الأرض مِن نَسْلِ آدمَ -؛ اعلَمُوا أنَّ أباكم نوحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان عبدًا شكورًا.

وكلَّما ازداد شُكرُ الإنسانِ، فتح الله عَزَّوَجَلَّ أبوابَ الفهم، وهيَّأ له مِن أبواب العلوم

والمَعارف والأعمال الصَّـالحة ما لا يتهيَّأ لغيرِه؛ كما قال - تعالى - في حقِّ لُقمانَ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان]؛ فإنَّ لُقمانَ لم يُؤْتَ الحكمةَ إلَّا لكونِه عبدًا شكورًا.

ثمّ أخبرَ الله عَزَّوَجَلَّ بأنَّ مَن شكرَ فإنَّ شُكْرَه يَعُود عليه بشكرِ الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ مَن كفر فإنَّه لا يضرُّ الله عَزَّوَجَلَّ شيئًا؛ كما قال - تعالى -: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان].

وقوله - تعالى-: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان]؛ يعني أنَّ مَن شكرَ الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّه يستخرِجُ بذلك شُكرَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعبْدِه؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يشكر عبادَه على أعمالِهم الصَّالحةِ.

كما ثبت في الحديث المُخرَّج في «الصَّحيحين» في قصَّة الرَّجل الَّذي سقَى الكلبَ، قال النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ**».

فإذا عمل الإنسانُ عملًا صالحًا فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يشكُرُه، ويُظْهِرُ له أثر هذه النِّعمة، بما يَجِدُه مِن الأُنْس في نفسِه، والطُّمأنينة في قلبِه، والانشراحِ في صَدْره؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ رَحِمَهُٱللَّهُ تعالى - فيما نَقلَه عنه تلميذُه ابنُ القيِّمِ -: (إذا عملتَ لله طاعةً فلم تجِدْ أثَرها، فاتَّهِمْ نفسَك؛ فإنَّ الرَّبَّ شَكُورٌ).



قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَصْلٌ

ومِن الأسباب المُوجِبة للسُّرور وزوال الهمِّ والغمِّ: السَّعيُ في إزالة الأسباب الجالِبة للهموم، وفي تحصيل الأسباب الجالبة للسُّرور.

وذلك بِنِسْـيانِ ما مضـى عليه مِن المَكاره الَّتي لا يُمكِنُه رَدُّها، ومعرفتِه أنَّ اشـتغال فِكْرِه فيها مِن باب العَبث والمُحال، وأنَّ ذلك حُمقٌ وجُنونٌ، فيجاهدُ قلبَه عن التَّفكُّر فيها.

وكذلك يجاهد قلبَه عن قلقِه لِمَا يَستقبِلُه، ممَّا يتوهَّمُه مِن فقرٍ، أو خوفٍ، أو غيرهما مِن المكاره الَّتي يتخيَّلُها في مُسـتَقْبَل حياتِه، فيَعلمُ أنَّ الأمورَ المسـتقبَلة مجهولٌ ما يقع فيها مِن خيرٍ وشرٍّ، وآمَالٍ وآلامٍ، وأنَّها بِيَدِ العزيز الحكيم، ليس بِيَدِ العبادِ منها شيءٌ، إلَّا السَّعيَ في تحصيل خيراتِها، ودفعِ مَضرَّاتِها، ويعلمُ العبدُ أنَّه إذا صرَف فِكْرَه عن قلقِه من أَجْل مسـتقبَلِ أمرِه، واتَّكَلَ على ربِّه في إصـلاحه، واطمأنَّ إليه في ذلك = إذا فعلَ ذلك اطمأنَّ قلبُه، وصلُحَت أحوالُه، وزالَ عنه همُّه وقلقُه.

ومِن أَنْفَعِ ما يكون في ملاحظة مستقبَل الأمورِ: استعمالُ هذا الدُّعاء الَّذي كان النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو به: «**اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِـي، وَأَصْـلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَـرٍّ**»، وكذلك قولُه: «**اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا**

تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ».

فإذا لَهَجَ العبدُ بِهذا الدُّعاء الَّذي فيه صلاحُ مستقبَلِه الدِّينيِّ والدُّنْيويِّ، بقلبٍ حاضرٍ، ونيَّةٍ صادقةٍ، مع اجتهادِه فيما يحقِّقُ ذلك = حقَّق الله له ما دعاه ورجَاه وعمِلَ له، وانْقلَبَ همُّه فرحًا وسرورًا.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَه اللهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا **سببًا سابعًا مِن أسباب السَّعادة المُوجِبةِ للسُّرور وزوالِ الهمِّ والغمِّ**؛ وهو أن يسعى في إزالة الأسباب الَّتي تجلِب عليه الهمَّ، ويسعى في تحصيل الأسبابِ الَّتي تجلب له السُّرور؛ فإنَّه إذا اجتهد في ذلك كان حارِسًا لِخَواطِره.

وهذا الموضع أيضًا مِن فروع باب (حِراسة الخَواطر)؛ فإنَّ الإنسانَ إذا دفعَ الأسبابَ الجالبةَ للهمِّ، وحصَّل الأسباب الجالِبةَ للسُّرور، كان حَريصًا على تحصِين خواطره من العِنايةِ بما لا ينفعُه، وذلك يتمثَّل بِنِسيان ما مضى عليه مِن المكاره الَّتي لا يمكِن ردُّها؛ فإنَّ الإنسانَ إذا مضى عليه شيءٌ مِن قَدَر الله عَزَّوَجَلَّ فإنَّه لا يستطيعُ رَدَّه، ففِكْرُه حينئذٍ في هذا القَدَر الماضي مِن باب العَبَث والمُحَال، وهو طَبْعُ مَن لا عقلَ له كاملٌ، فينبغي أن يجاهد قلبَه عن الفِكْرِ فيه.

كما أنَّه ينبغي عليه أن يُجَاهدَ نفسَه على عَدَمِ الفِكْر في الأمور المستقبَلة المجهولة الَّتي لا يَدْري ما فيها من خيرٍ أو شرٍّ، وآمالٍ وآلامٍ، وألَّا يُشْقي نفسه بذلك.

وممَّا فَشا بِأَخَرةٍ فيما يتعلَّق بتفكير النَّفس في الأمور المستقبَلة - فيما سمعه الإنسانُ

مِن اســتفتاءاتٍ -: أنَّ بعض النَّاس حِين يتزوَّجون لا يَرْغبون في أن يُبكِّروا في إنْجَابِ الأولاد، فيغلِب عليهم الأمرُ وتحمِل نسـاؤُهم، فيأتيك - نسـأل الله السَّـلامةَ - مَن يسـتفتِيك لأجل إسـقاط الجَنين! لأنَّه يَتوهَّم - بما يَدَّعيه - أنَّه ربَّما لا تَطِيب الحياةُ بينَه وبين زوجِه، فعندئذٍ يعظُم هَمُّه مِن هذا الوَلِيد!

وكلُّ هذا مِن سـوء الظَّنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ، ومَن سَـاء ظَنُّه بربِّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جازَاه الله عَزَّوَجَلَّ بِقَدْر ظَنِّه.

ومِن جملة ذلك أيضًـا: تشـوُّش كثيرٍ مِن الخواطر بما يتعلَّق بأمورِ الرِّزق، الَّتي تُسَمَّى في لسانِ العَصْر بـ(الاقتصاد)؛ فإنَّ هذا الأمرَ - بحمد الله - غيرُ مَوْكُولٍ إلى الخَلْق، ولكنَّه مَوْكُولٌ بالرَّبِّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ فإنَّ الَّذي خلق الخَلْق هو الَّذي يَرْزُقُهم؛ كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذَّاريات].

وإنَّ أُمَمَ النَّاس عاشَتْ قرنًا بعد قَرْنٍ برزقِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ولم يكِلِ الله عَزَّوَجَلَّ قطُّ رزقَ أَحدٍ من المخلوقين إلى أحدٍ مِن المخلوقين؛ فمَا نسـمَعُه مِن بعضِ مَا يُسْـتَجَرُّ مِن أمم الكُفْر مِن كثرةِ عدد سـكَّان العالم، ونَقْص مَوارِدِ الرِّزق فيه، وأنَّ العالَم مُقبِلٌ على مَجاعةٍ... وأشباهِ هذه الخَبَالات والضَّلالات = كلُّها عند المؤمِن لا تُسَاوي شيئًا، ولا تحرِّكُ مِن إقباله على ربِّه شيئًا؛ لعلمِه أنَّ الرِّزق بيَدِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقد يفتح الله عَزَّوَجَلَّ من أسباب الرِّزق ما لم يكن يخطُر بِبَاله، ولا جرى فِي نفسِه.

كما ذُكِر أنَّ بعضَ أهلِ بُرَيْدَةَ مِن آل الرَّوَّاف - وهم عائلةٌ وَجِيهةٌ - رأى مَنامًا فيه أنَّ رِزقَه في بلاد الشَّام، فاحْتَمَل على دابَّتِه إلى بلاد الشَّـام، وتَوجَّه إليها رَجاء أنْ يَجِدَ له بابًا مِن أبواب الرِّزق. فبقي فيها مُدَّةً محزونًا مهمومًا مغمومًا، إذْ لم يَجِدْ صِـدْقَ ما رآه فِي

رُؤياه مِن أنَّ رِزقَه في بلاد الشَّام.

وبينما هو ذات مرَّةٍ جالسٌ على تَلٍّ بِظاهِرِ دِمشقَ، وإذا بِرَجُلٍ يَمُرُّ عليه، فرآه غريبًا، فاستَحْسَن أن يُعطِيَه هديَّةً أو صدقةً طعامًا كان معه مِن الفاكهة ينزل به إلى دمشقَ لِيَبِيعه، فسَلَّم عليه، ووضع عنده شيئًا منه، ثمَّ انصرف عنه. فلمَّا رجعَ إلى طريقه بعد بَيعِ سِلْعتِه، وجدَ هذا الجالسَ لم يُصِبْ شيئًا ممَّا وضعَه بين يديه، فجلس إليه وسأله عن حالِه، فبَيَّن له حالَه، وشَكَا إليه أَمْرَه، وكيف أنَّه خرج مِن بلادِه لأجل رُؤيًا رآها في طَلَبِ رِزقه وأنَّه بالشَّام.

فضحك منه هذا الرَّجل لمَّا سمع قِصَّته؛ إذْ كَيْفَ استجاب لهذا الوَارِد في منامه، وانتقل مِن بلاده إلى هذه البلاد مِن دُون مُوجِبٍ! وقال له الرَّجل: لو أنِّي أَتْبَع الرُّؤى لَذهبتُ إلى بِلادِكم، فلقَدْ رأيتُ فيما يَرَى النَّائمُ أنَّ رجلًا جاءنِي، وقال: إنَّ كَنْزَ الرَّوَّافِ تحت مَرْبَط فَرَسِه - ولم يكن يعلمُ أنَّ هذا الرَّجلَ الَّذي يُحَدِّثه مِن آلِ الرَّوَّاف -، فسمع هذا الرَّجل هذا الخبَر وكتمَه، وخرج مِن ساعته لبلده، وجاء إلى مَرْبَط الفَرَس، فحَفَره فوجد كنزًا كان دَفَنَه بَعْضُ آبائِه فِي أرضِهم.

وذكر الشَّيخ عبد الرَّحمن بنُ حسَنٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.... [1] حتَّى فَنِي المالُ؛ فعندَ ذلك تَفرَّق النُّدَماء، وهجَرَه النَّاسُ.

فخرج مرَّةً إلى أبياتٍ لهم قديمةٍ بظاهرِ بَلدِهم الَّذي يسكُنُونه، يتألَّم ويَتَحَسَّر كيفَ فعل هذا بِمَال أبيه، وكيف آلَ أَمْرُ النَّاس إلى تَرْكِه. فبَيْنَما هو جالسٌ متَّكِئًا على جدارٍ من الجُدران، وإذا به يرى فأرةً قد أخذَت في فمِها دينارًا ذهبيًّا، رأى لَمَعَانَه بسبب ضوء

(١) سَقْطٌ في التَّسجيل.

الشَّمس، ففَرِح برؤية هذا الدِّينار مِن الذَّهب، فلَحِقَ الفأرةَ، فدخلتِ الفأرةُ في جُحْرٍ، فأبى إلَّا أن يحفِرَ هذا الجُحْرَ ليَسْتَنْقِذَ الدِّينارَ، فلمَّا حفر هذا الجُحْرَ، وإذا بِأَكْوَامٍ مِن الدَّنانير الذَّهبيَّة كان والدُه قد وضعَها في هذا المَحلِّ.

فانظرْ إلى رِزق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكيف أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُجْرِيه بأبوابٍ لا تكون على بالِ العبد ولا على خاطِرِه.

ثمَّ أرشد المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى إلى (أَنْفعِ ما يكون في ملاحظة مستقبَل الأمور)، وهو استعمالُ الأدعيةِ الواردة عن النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذَكَر مِن ذلك دُعاءَين:

* **أوَّلهما**: («اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ المَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ»)، الجامعَ لِمَا فيه خيرُ الإنسان في دُنياه وأُخْراه.

* **وثانيهما**: الحديثُ المُخرَّج عند أبي داودَ وغيره، وهو حديثٌ حسنٌ؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدعو: («اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ...») الحديثَ، فإنَّ الإنسان في هذا الحديث يتبرَّأ مِن حَوْلِه وقُوَّتِه.

وهذا الحديث أصلٌ في إبطال قولِ النَّاس: (تجب الثِّقة بالنَّفس)؛ فإنَّ الثِّقةَ بالنَّفس لا تَنْبَغي؛ وقد سُئِل شيخُ شيوخِنا محمَّدُ بنُ إبراهيمَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عن قول الإنسان: (يجب أن يَثِق بنفسه)، فقال: (الثِّقة بالنَّفس لا تَنْبَغي)، وذلك لأجل هذا الحديث؛ فإنَّ الإنسان إذا وُكِل إلى نفسه خُذِل.

ولا غِنَى للإنسان عن هِبَات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإعانَتِه وتوجِيهِه، وإذا ظَنَّ أنَّه يستغني عن إعانة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْرَ أُنمُلَةٍ فإنَّه يهلك، وتَبُور حَالُه، ويفسُدُ أمرُه.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:



ومِن أنفعِ الأسـباب لزوال القلق والهموم إذا حصـلَ على العبد شـيءٌ من النَّكبات: أن يسـعى في تخفيفها؛ بأن يُقَدِّرَ أسـوأَ الاحتمالات الَّتي ينتهي إليها الأمرُ، ويُوطِّنَ على ذلك نفسَه.

فإذا فعل ذلك فَلْيَسْعَ إلى تخفيفِ ما يمكِنُ تخفيفُه بحسَب الإمكان، فبِهَذا التَّوطين، وبِهذا السَّعي النَّافع؛ تزولُ هُمومه وغُمومه، ويكون بَذْلُ ذلك السَّعي في جلب المنافع، وفي دفع المَضارِّ المَيْسُورة للعبد.

فإذا حَلَّت به أسباب الخوف، وأسبابُ الأسْقام، وأسبابُ الفقر والعَدَم لِما يحِبُّه من المحبوبات المتنوِّعة؛ فلْيَتَلَقَّ ذلك بطمأنينةٍ وتَوْطينٍ للنَّفس عليها، بل على أشـدِّ ما يُمْكِن منها، فإنَّ توطِين النَّفس على احتمال المكارهِ يُهوِّنُها ويُزِيل شِـدَّتَها، وخصـوصًا إذا أشـغل نفسَه بمُدافَعِتها بحسب مَقْدُورِه، فيجتَمِعُ في حقِّه: توطين النَّفس، مع السَّعي النَّافع الَّذي يشـغَل عن الاهتمام بالمصـائب، ويجاهد نفسَـه على تجديد قوَّة المقاومة للمَكاره، مع اعتمادِه في ذلك على الله، وحُسْن الثِّقة به.

ولا ريبَ أنَّ لهذه الأمور فائدتَها العظمى في حصـول السُّـرور، وانشـراح الصُّـدور، مع ما يُؤَمِّله العبدُ مِن الثَّواب العاجل والآجل، وهذا مشـاهَدٌ مُجرَّبٌ، ووقائِعُه ممَّن جرَّبه كثيرةٌ جدًّا.

قال الشارح وفقه الله:

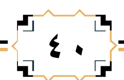
ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا **سببًا ثامنًا من أسباب السَّعادة**؛ وهو أن يسعى الإنسانُ في تَعْوِيد نفسه على تَصوُّر ما ينتهي إليه الأمرُ مِن الغاية، وأن يُوَطِّن نفسَه على معاملة الكائن الَّذي يكون حينئذٍ؛ فإنَّ الإنسان إذا رَوَّض نفسَه هذه الرِّياضةَ، كان فيها قُدرةٌ على احتمال الواردات.

فمثلًا: إذا لم يُرَوِّضِ الإنسانُ نفسَه في الأَقْدار المُؤلِمة على الصَّبْر على القَدَر اليسير المُؤْلِم، فإنَّه لا يستطيع أن يُوطِّن نفسَه بالصَّبْر على القَدَر العظيم المُؤْلِم؛ **ومَن لم يُوَطِّنْ نفسه على الصَّبْر في عَثْرة قَدَم، فإنَّه لا يقْدِر على الصَّبْر فيما هو أشدُّ مِن ذلك من الألم.**

فإذا توطَّن الإنسانُ على أن يُصَبِّر نفسَه على هذه الأمور اليَسيرة، فإنَّ ذلك يرجع عليه بأن يتحمَّل في الأمور العظيمة.

فينبغي أن يكون من دأب العبد إذا ضُرِبَت إصبَعُه، أو عَثَرْت قَدَمُه، أو ارْتَطَم رأسُه: أن يُعَوِّد نفسَه على هذا الصَّبْر، وأن يترك التَّأَوُّهَ والتَّألُّمَ الزَّائد عن قَدْر الطَّبيعة، حتَّى إذا وَرَد واردٌ عظيمٌ يكون عنده من القدرة النَّفسيَّة ما يستطِيع به تحمُّلَ هذا الوَارِد، فإنَّه حينئذٍ تندفِع عنه القَلاقِلُ والبَلابِل، وأسباب الخوف وأسباب السَّقَم.





قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:



فَصْلٌ

ومِن أعظم العلاجات لأمراض القلب العصَبيَّة، بلْ وأيضًا للأمراض البدنيَّة: قُوَّة القلب، وعدمُ انزعاجِهِ وانفعالِه للأوهامِ والخَيَالات الَّتي تجْلِبُها الأفكار السَّيِّئة، والغضبِ والتَّشوُّشِ من الأسباب المؤلمة.

ومَن توقَّع حدوثَ المكاره وزوالَ المَحابِّ، أوقَعَه ذلك في الهُموم والغُموم والأمراض القلبيَّة والبدنيَّة، والانْهيارِ العصبيِّ الَّذي له آثاره السَّيِّئة الَّتي قدْ شاهد النَّاس مَضارَّها الكثيرة.

ومتى اعتمدَ القلبُ على الله، وتوكَّل عليه، ولم يستَسْلِمْ للأوهام، ولا مَلَكَتْه الخيالاتُ السَّيِّئة، ووَثِقَ باللهِ وطمِعَ في فضلِه = اندَفَعَتْ عنه بذلك الهُموم والغُموم، وزالتْ عنه كثيرٌ من الأسْقام البدنيَّة والقلبيَّة، وحصل للقلب مِن القُوَّة والانْشِراح والسُّرور ما لا يمكن التَّعبير عنه.

فكم مُلِئَت المُستشْفَياتُ مِن مرضى الأوهام والخيالات الفاسدة، وكم أثَّرَت هذه الأمور على قلوب كَثِيرين مِن الأقوياء، فضلًا عن الضُّعفاء، وكمْ أدَّتْ إلى الحُمْق والجُنون.

والمُعافَى مَن عافاه الله، ووفَّقه لجهاد نفسِه لتحصيل الأسباب النَّافعة المُقَوِّيَّة للقلب، الدَّافعة لِقَلَقِه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق:٣]؛ أي

كافيه جميعَ ما يُهِمُّه من أمر دينه ودنياه.

فالمتوكِّلُ على الله: قويُّ القلب، لا تُؤثِّر فيه الأوهام، ولا تُزْعِجُه الحوادث؛ لعلمِه أنَّ ذلك مِن ضَعْف النَّفس، ومِن الخَوَرِ والخَوف الَّذي لا حقيقةَ له، ويعلمُ - مع ذلك - أنَّ الله قد تَكفَّل لِمَن تَوكَّل عليه بالكفاية التَّامَّة، فيَثِقُ بالله، ويَطْمَئِنُّ لوعده، فَيَزول همُّه وقلقُه، ويتبدَّل عُسْرُه يُسرًا، وتَرَحُه فَرحًا، وخَوْفُه أَمْنًا.

فنسألُه - تعالى - العافيةَ، وأن يَتَفَضَّلَ علينا بِقُوَّة القلب وثَبَاتِه، وبالتَّوكُّل الكاملِ الَّذي تكفَّل الله لأهلِه بكلِّ خيرٍ، ودفعِ كلِّ مكروهٍ وضَيْرٍ.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

ذكر المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هنا **السَّبب التَّاسع مِن أسباب السَّعادة**؛ وهو أن يكون القلب قويًّا غيرَ ضعيفٍ، لا ينزعج بالأوهام العاطِلة والخَيالات الباطلة الَّتي تَجْلِبها وارِدَاتُ الوسوسةِ، بل لا ينفعلُ بما يُحرِّك ذلك مِن الغضبِ والحِقْدِ وأشباهِ ذلك، فيدفع هذه الواردات عنه، وإذا قويَ القلبُ كان في ذلك سعادتُه.

وقد أرشد إلى هذا النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حديث أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ المخرَّج في «صحيح مسلمٍ»؛ أنَّ النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»، وأعظمُ قوَّةِ المؤمن هي قُوَّة قلبه، وإنَّما تحصُل للعبدِ قوَّةُ القلب بامتلاء القلبِ بمحبَّة الله، والاعتمادِ عليه، والتَّوكُّل عليه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وكمال التَّألُّه له عَزَّوَجَلَّ؛ كما سبق ذِكرُه في درس «كتاب التَّوحيد» للحافظ ابن رجبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

فمَن توكَّل على الله، ولم يكن في قلبِه ســواه؛ كان قلبُه قويًّا ثابتًا، غيرَ مُتزَعْزِعٍ مع الواردات، واثقًا بِوَعْد الله، محسِــنًا للظَّنِّ بِرَبِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فتزول هُمومُه، وتتبدَّلُ غُمُومه، وتنْقَلِب مَضرَّتُه إلى نفعٍ، وعُسْرُه إلى يُسْرٍ، وتَرَحُه إلى فَرَحٍ.



قال المصنف رحمه الله:

فصل

وفي قولِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ**»، **فائدتان عظيمتان:**

إحداهما: الإرشاد إلى معاملة الزَّوجة، والقَرِيب، والصَّاحب، والمُعامَل، وكلِّ من بينَك وبينه علاقةٌ واتِّصالٌ، وأنَّه ينبغي أن تُوَطِّن نفسَك على أنَّه لا بُدَّ أن يكون فيه عيبٌ أو نقصٌ أو أمرٌ تكْرَهُه، فإذا وجدتَ ذلك، فَقارِنْ بين هذا وبين ما يجِب عليك، أو ينبغي لك مِن قُوَّة الاتِّصال، والإبقاء على المَحبَّة؛ بِتَذَكُّر ما فيه من المَحاسن، والمَقاصد الخاصَّة والعامَّة، وبِهذا الإغْضَاء عن المَساوئ وملاحظةِ المَحاسن، تَدُومُ الصُّحبة والاتِّصال، وتتِمُّ الرَّاحة وتحصل لك.

الفائدة الثَّانية: وهي زوالُ الهمِّ والقلقِ، وبقاءُ الصَّفاء، والمُداومةُ على القيام بالحقوق الواجبة والمستحبَّة، وحصولُ الرَّاحة بين الطَّرفين، ومنَ لم يسترْشِدْ بِهذا الَّذي ذكرَه النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل عكس القضيَّة فلَحَظ المَساوئ، وعَمِي عن المَحاسن؛ فلا بُدَّ أن يقلقَ، ولا بُدَّ أن يتكَدَّر مَا بينه وبين مَن يتَّصل به مِن المحبَّة، ويتقطَّع كثيرٌ من الحقوق الَّتي على كلٍّ منهما المحافظة عليها.

وكثيرٌ مِن النَّاس ذوي الهِمَم العالية يُوطِّنون أنفسَهم عند وقوع الكوارث والمُزعِجات على الصَّبْر والطُّمأنينة، لكن عندَ الأمور التَّافهة البسيطة يقْلَقُون، ويَتكدَّر

الصَّفاءُ، والسَّبب في هذا: أنَّهم وَطَّنوا نُفوسَهم عند الأمور الكِبَار، وتركوها عند الأمور الصِّغار؛ فضَرَّتْهم، وأثَّرَتْ في راحتِهم.

فالحازم يُوطِّن نفسَه على الأمور القليلة والكَبيرة، ويسألُ اللهَ الإعانةَ عليها، وألَّا يَكِلَه إلى نفسِه طَرْفةَ عَيْنٍ، فعند ذلك يسهل عليه الصَّغير، كما سَهُل عليه الكَبيرُ، ويبقى مُطمئنَّ النَّفس، ساكِنَ القَلب مستَرِيحًا.



فَصْلٌ

العاقلُ يعلَم أنَّ حياتَه الصَّحيحةَ حياةُ السَّعادةِ والطُّمأنينةِ، وأنَّها قصيرةٌ جدًا، فلا ينبغي له أن يُقَصِّرها بالهَمِّ والاستِرْسال مع الأَكْدار، فإنَّ ذلك ضِدُّ الحياة الصَّحيحة، فيَشُحُّ بحياته أن يذهب كثيرٌ منها نَهْبًا للهموم والأكْدار، ولا فرقَ في هذا بين البَرِّ والفاجر، ولكنَّ المؤمنَ له مِن التَّحقُّق بِهذا الوصف الحظُّ الأَوفَرُ، والنَّصيب النَّافع العاجِلُ والآجِلُ.

وينبغي أيضًا إذا أصابَه مكروهٌ، أو خاف منه: أن يُقَارِن بين بَقيَّة النِّعم الحاصلةِ له - دينيَّةً أو دنيويَّةً -، وبين ما أصابه مِن مكروهٍ، فعند المقارنة يتَّضحُّ كثرةُ ما هو فيه من النِّعَم، واضْمِحْلالُ ما أصابه من المكاره.

وكذلك يُقَارِن بين ما يخافُه مِن حُدوث ضَررٍ عليه، وبين الاحتمالات الكثيرة في السَّلامة منه، فلا يدعُ الاحتمالَ الضَّعيفَ يغلب الاحتمالاتِ الكثيرةَ القويَّةَ، وبذلك يزول همُّه وخوفُه.

ويُقَدِّر أعظمَ ما يكون من الاحتمالات الَّتي يمكن أن تُصِيبَه، فيُوَطِّن نفسَه لحدوثها إنْ حدثت، ويسعى في دَفْعِ ما لم يَقَعْ منها، وفي رَفْعِ ما وقَعَ أو تخفيفِه.

ومن الأمور النَّافعة: أن تعرفَ أنَّ أذيَّةَ النَّاس لك - وخصوصًا في الأقوال السَّيِّئة - لا تضرُّك بل تضرُّهم؛ إلَّا إنْ أشغَلْتَ نفسَك في الاهتمام بِها، وسَوَّغْتَ لها أن تملك مشاعِرَك؛ فعندَ ذلك تضُرُّك كما ضرَّتهم، فإنْ أنت لم تضَعْ لها بالًا لم تَضُرَّك شيئًا.

واعلمْ أنَّ حياتَك تبَعٌ لأفكارك؛ فإن كانت أفكارًا فيما يعودُ عليك نَفْعُه في دينٍ أو دُنيا فحياتُك طيِّبةٌ سعيدةٌ، وإلَّا فالأمرُ بالعكسِ.

ومِن أَنْفَع الأمور لطرد الهمِّ: أن تُوَطِّن نفسك على ألَّا تطلُب الشُّكر إلَّا مِن الله، فإذا أحسنتَ إلى مَن له حقٌّ عليك أو مَن ليس له حقٌّ، فاعلمْ أنَّ هذا معاملةٌ منك مع الله، فلا تُبَالِ بِشُكْرِ مَن أَنْعَمْتَ عليه؛ كما قال تعالى فِي حقِّ خَواصِّ خلقِه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان].

ويتأكَّد هذا في معاملة الأهلِ والأولادِ ومَن قَوِيَ اتِّصالُك بِهم، فمتى وطَّنْت نفسَك على إلقاء الشُّكْرِ عنهم، فقد أرحْتَ واسترَحْتَ.

ومِن دواعي الرَّاحة: أخذُ الفضائلِ، والعملُ عليها، بحسب الدَّاعِي النَّفسيِّ، دون التَّكلُّف الَّذي يُقلِقُك، وتَعُودُ على أدراجِك خائبًا مِن حصول الفضيلة، حيث سَلَكْتَ الطَّريق المُلتويَ، وهذا مِن الحكمة، وأنْ تتَّخذ مِن الأمور الكَدِرَةِ أُمورًا صافيةً حُلْوةً، وبذلك يَزِيد صفاء اللَّذَّات، وتزولُ الأَكْدَار.

اجعلِ الأمورَ النَّافعةَ نَصْبَ عَينيك، واعملْ على تحقيقِها، ولا تلتَفِتْ إلى الأمور الضَّارَّة، لِتَلْهُوَ بذلك عن الأسباب الجالِبَة للهمِّ والحُزْن، واستَعِنْ بالرَّاحة وإجْماعِ

النَّفس على الأعمال المُهمَّة.

ومن الأمور النَّافعة: حَسْـمُ الأعمال في الحال، والتَّفرُّغ في المسـتقبَل؛ لأنَّ الأعمال إذا لم تُحْسَـم، اجتمعَ عليك بقيَّةُ الأعمال السَّـابقة، وانْضَـافَت إليها الأعمالُ اللَّاحقة، فتَشْـتدُّ وطْأَتُها، فإذا حَسَـمْتَ كلَّ شـيءٍ بِوَقتِه، أَتَيْتَ الأمورَ المُسـتقبَلَةَ بِقُوَّةِ تفكيرٍ وقُوَّة عملٍ.

وينبغي أن تتخيَّر مِن الأعمال النَّافعة الأهمَّ فالأهمَّ، ومَيِّزْ بين ما تَمِيلُ نَفْسُـك إليه، وتشتَدُّ رَغْبَتُك فيه، فإنَّ ضِدَّه يُحْدِثُ السَّآمةَ والمَلَلَ والكَدَرَ، واستَعِنْ على ذلك بالفِكْرِ الصَّـحيح والمُشـاورة، فمَا نَدِم مَنِ اسْـتَشَـار، وادْرُسْ ما تُرِيد فِعْلَه درسًـا دقيقًا، فإذا تحقَّقَتِ المَصلحة، وعَزَمْتَ؛ فتوكَّل على الله، إنَّ الله يحِبُّ المتوكِّلين.

والحمد لله ربِّ العالمين.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّدٍ، وعلى آله وصحبه وسلَّم.



قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

لمَّا ذَكر المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى تسعة أسبابٍ من أسباب السَّعادة، **ختم كتابه هذا بذكر عشرةِ قواعدَ مِن قواعد السَّعادة:**

❁ **أوَّلها:** أنَّه ينبغي على الإنسان أن يُوطِّن نفسَه على أنَّه لا بُدَّ أن يكون فيمَن يعامِلُه مِن الخلق عَيْبٌ أو نَقْصٌ، أو أمرٌ يكْرَهُه منه، **وآكَدُ ما يكون هذا:** فيمن يكون قريبًا من الإنسـان؛ كأخٍ، أو زوجةٍ، أو قريبٍ، أو صـاحبٍ؛ فإنَّه إذا علمَ أنَّ الإنسـان لا يَسْـلَم مِن

عيبٍ أو نقصٍ، فإنَّه عند ذلك لا يشتَغِل قَلْبُه، ولا يضِيقُ صدْرُه بما أتى به مِن خطأٍ في حَقِّه.

❁ **والقاعدة الثَّانية**: أنَّ مِن أعظم أسباب زوال الهمِّ والقَلق، وبقاء الصَّفاء والمُداومةِ: القِيام بالحُقوق الواجبة والمُسْتَحَبَّة بين المتعامِلين مِن الخلق؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد رَتَّب بينَ الخَلْقِ حقوقًا واجبةً ومستحبَّةً، فمَن قام بِهذه الحقوق، وأعطى كلَّ ذي حقٍّ حَقَّه، نال مِن السَّعادة على قَدْرِ ما يُؤَدِّيه.

❁ **القاعدة الثَّالثة**: أن يعلمَ الإنسانُ أنَّ حياته الصَّحيحة هي حياةُ السَّعادة والطُّمأنينة، وأنَّها قصيرةٌ جدًّا، فلا ينبغي أن يُكدِّرها بالأحزان والشَّقاء والهمِّ والغمِّ، وقد عَدَّ بعضُ الملوك السَّابقين أيَّام الأُنْسِ في وِلايته، فلم تَتَجاوزْ أحدَ عشر يومًا! فيعلمُ الإنسان أن حياتَه الَّتي ينبغي أن تكون حياتَه، هي حياة الهَناء والسَّعادة، فيحرِصُ عليها، ولا يُكَدِّرها بما يَشُوبُها.

❁ **القاعدة الرَّابعة**: أنَّه ينبغي على الإنسان إذا أصابه مكروهٌ، أو خافَ منه: أن يُقَارِن بين هذا المَكْرُوه الورادِ عليه، وبين النِّعم الحاصلة له؛ فإنَّ المُقارَنةَ بينهما حينئذٍ تَدْفَعُ عن نفسه ما يكون فيها مِن تشوشٍ، ويضمَحِلُّ أَثَرُ ما أصابَه مِن مَكْروهٍ، ومَن رجع إلى نفسِه في نعمة الله عَزَّوَجَلَّ عَجز عن عَدِّها؛ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴿١٨﴾ ﴾ [النَّحل].

❁ **القاعدة الخامسة**: أن تعرفَ أن أَذيَّة النَّاس لك - وخُصوصًا بالأقوال السَّيِّئة - لا تضُرُّك شيئًا، بل تَضُرُّهم، إلَّا إذا اشتغَلْتَ بِها، فإنَّها عند ذلك تُؤَثِّر على قلبِك، وتُشَوِّش خاطِرَك، وتُزْعِج صَدْرَك، وتجعَلُه ضَيِّقًا حَرِجًا، بل ما وردَك مِن هذا الكلام

فأَعْرِضْ عنه، ولا تجعَلْ أُذُنَك مفتُوحةً لاستقبالِه، فإنَّ الانشغال بذكرِ النَّاس وأقوالِهم داءٌ يُضْعِف سَيْرَ الإنسانِ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❁ القاعدة السَّادسة: أن تعلمَ أنَّ حَيَاتَك تَبَعٌ لأفكارك؛ فإذا كانتْ أفكَارُ الإنسانِ فيما يَعُود عليه بالنَّفع، فحينئذٍ تكون حياتُه طيِّبةً سعيدةً، وإذا كانت أفكارُه فيما لا يَعُود عليه بالنَّفع، صارت حياته تَعيسةً شقِيَّةً.

وهذه القاعدة تتعلَّق بما سبق ذِكْرُه مِن حِراسةِ الخواطر؛ فإنَّ الإنسانَ إذا لم يحْرِسْ خواطِرَه، وصارت هذه الخَواطرُ مُقلَّبةً بما لا يُحِبُّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا يرضاه ولا يأذَنُ به لِخَلْقِه، فحينئذٍ تَتَشوَّش عليه حياتُه.

❁ القاعدة السَّابعة: أنَّ مِن أَنْفَعِ الأُمور لِطَرْد الهَمِّ: أن يُوطِّن الإنسانُ نفسَه على ألَّا يطلُبَ مِن أحدٍ مِن الخلق شُكْرًا؛ فإنَّ أكثرَ الخلقِ يَكْفُر النِّعمةَ الَّتي تُوصَل إليه، ويمتَنِع من الإقرار بالإحسان الَّذي أُرْسِل عليه، ولذلك كانَتْ عَلَامة العَارِف - كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ -: (أنَّه لا يُطَالِب، ولا يُعاتِب، ولا يُغالِب). فينبغي ألَّا تنتظر شُكرًا مِن أحدٍ، بل تعمل العَملَ قربةً إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ كما جاء في وصف العامِلين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن خَواصِّ خَلْقِه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان]، ثمَّ ذكر الحامِلَ لهم على ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان].

فمِن أعظمِ ما يطمئِنُّ به قلبك، وينشَرِح صدرُك: ألَّا تَنتظِرَ الشُّكرَ مِن أحدٍ، كائنًا مَن كان، بل تَنْتظِرُ الشُّكر مِن ربِّك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❁ القاعدة الثَّامنة: أن يجعلَ الإنسانُ نَصْبَ عَيْنَيْه الأُمورَ النَّافعة، وأن يعمَلَ على

تحقيقِها، ولا يَلْتَفِتَ إلى الأُمور الضَّارَّة الَّتي تقطَعُه عنها.

وممَّا يستعين به الإنسانُ مِن الثَّبات على الأمور النَّافعة: أن يُجِمَّ نفسَه ويُرِيحَها بين الحِين والحِين، فإنَّ إجْمَام النَّفس أصلٌ من الأصول العظيمة، وإذا غفل الإنسان عن إجْمَام نفسَه، فإنَّه يضِلُّ ويشقى؛ لأنَّ النَّفس لا تحتمل الثِّقل عليها، فإنَّ القلب له قوَّةٌ كَقُوَّة البدن، فكما أنَّ الإنسان لا يستطيع ببدَنِه - مثلًا - أن يرفع أثقالًا كثيرةً، فكذلك قد لا يستطيع بقلبِه أن يحمِل أمورًا عظيمةً، حتَّى يُرِيح هذا القَلْبَ بين مرَّةٍ وأخرى، فتحصُل له قوَّةٌ بِهذا الإجمام.

وممَّا يُنبَّه إليه - ونحن في طَلِيعة هذه الإجازة -: أنَّ الإجمام الَّذي يحصل للنَّفس به نفعٌ هو الإجمام بما أَذِن الله عَزَّوَجَلَّ به شَرْعًا، أمَّا ما يعمل بعض النَّاس مِن إجمام أنفسِهم فيما يفعلون بالسَّفر إلى بلاد الكُفر، أو فعل المُحَرَّمات والمُوبِقات؛ كالاجتماع في المسرحيَّات المُحرَّمة، والأغانِي المَاجِنة، والمَجَامِع الَّتي فيها المعاصي ظاهرةٌ كشواطئ بعض البلدان = فهذا إجمامٌ يعود على القلب بالألم والعذاب والشَّقاء، فينبغي أن يَتَّقي الإنسانُ ربَّه عَزَّوَجَلَّ فيما قصَدَ به مِن الإجْمام.

وفي بلادنا هذه - بحمد الله - مواضِعُ خَصْبةٌ بما يحصل به إجْمام الإنسان لنفسِه، بالسَّفر إلى المناطق الجميلة فيها، أو المواضع المُقدَّسة كمكَّةَ والمَدِينة، فإنَّ ذلك فيه خيرٌ عظيمٌ.

❁ **القاعدة التَّاسعةُ:** أنَّ مِن الأمور النَّافعة في تحصيل السَّعادة: أن يحسِمَ الإنسان الأعمالَ في الحال، ولا يكون ذَا تَرَدُّدٍ، ليتفرَّغ لأعمال المستقبَل؛ كما قال الشَّاعر:

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ ... فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ تَتَرَدَّدَا

لأنَّ المُتَرَدِّد تَتكاثَرُ عليه الأعمالُ، ولا يستطيع إنجازَ بعضِها على بعضٍ بسبب تأخيرِها جميعًا.

فينبغي أن يعوِّدَ الإنسان نفسَه على المبادرة إلى قضاء ما عليه مِن أعمالٍ، حتَّى يَتَفَرَّغ للأعمال المستقبَلة لئلَّا تَكْثُر عليه.

❁ **القاعدة الأخيرة:** أنَّه ينبغي أن يَتخيَّر الإنسانُ مِن الأعمال النَّافعة الأهمَّ فالمهِمَّ، فيبتدئُ بالأمور العظيمة الَّتي يحصُل بِها صلاحُه.

كهذه الإجازة، فليس مِن الأمور العظيمة فقط الإجمام كما يبتدئ النَّاسُ هذه الإجازةَ بالإجمام، ولا يجعلون في أذهانِهم طولَ هذه الإجازة إلَّا طلبَ الإجمام! فإنَّ هذا وقتٌ عظيمٌ، بل ينبغي أن يشتغِلَ الإنسان في هذه الإجازة في أوقاتٍ كثيرةٍ منها بحفظ شيءٍ من كتاب الله، أو كلام النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو التَّفقُّه في الدِّين، ولا يُخلِي نفسَه مِن الإجمام بمأذونٍ به شرعًا.

ثمَّ عليه أنْ يحمِلَ نفسَه على ما يَرَى أنَّه صالِحٌ لها مِن الأعمال مِمَّا تحبُّه النَّفْسُ، وتَمِيل إليه، فإنَّ ذلك يدفع عنها السَّآمةَ والمَلَلَ والكَدَرَ، أمَّا إذا حمَلَها على شَيءٍ لا تستطِيعُه فإنَّها عند ذلك تَسْأَم وتمَلُّ وتتكَدَّر.

ويَسْتَعين الإنسانُ في معرفة ما ينبغي أن يُرتِّبه مِن أعمالٍ أو يصلح له، بالفِكْر الصَّحيح، والمَشُورَة لأهل العقل الرَّاجح، ففي ذلك خيرٌ كثيرٌ؛ فإنَّه ما نَدِم مَنِ استَخار الخالِق، واسْتِشَار المخلوق، فالإنسان في أعماله بينَ استخارةٍ للخالق، واستشارةٍ للمخلوق؛ فالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له العلم بالأمور الباطنة الَّتي لا نُدْرِكُها، والمخلوق له العلم بالأمور الظَّاهرة الَّتي يُدْرِكها، فإذا كان الإنسان جامعًا بين استخارته لخالقه،

واستشارته لمخلوقِه؛ استقام له أمْرُه.

وهذا آخر التَّقرير على هذه الرِّسالة النَّافعةِ العظيمة، الَّتي أنصحُ كلَّ إنسانٍ في هذا المسجدِ - طالبَ علمٍ أو غيره - أن يقْرَأَها مِرارًا، وأن يقرأَها على أهلِه، وأن يأمُرَهُم بقراءتِها، وهي رسالة «الوسائل المُفِيدة للحياة السَّعيدة» للعلَّامة عبد الرَّحمن بنِ ناصرِ ابن سعديٍّ، أحد علماء عُنَيْزَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى.

جعلنا الله جميعًا وإيَّاكم من السُّعداء، وبَاعَد بيننا وبين أسباب الشَّقاء، وتَوَلَّانا برحمته، وكَلَأَنَا بِرِعَايَتِه.

والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على عبدِه ورسولِه محمَّدٍ، وآله وصحبِه أجمعين.

تَمَّ إقراء الكتاب فِي مَجلسٍ وَاحِدٍ
بعد المغرب ليلة الخميس التَّاسع والعشرين من جمادى الآخرة
سَنَةَ تسعٍ وعشرين بَعْدَ الأَرْبَعِمائَةِ وَالأَلْفِ
فِي جامع الإيمان بحي النَّسيم بِمَدِينَةِ الرِّياض



فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد

فَوَائِد